الآثار الأدبية والنقدية والعلمية

للدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا(*)

مزنة عبدالله البهلال- السعودية

يعد الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا من المقلين في ميدان التأليف والكتابة، ولعل ذلك راجع: لانشغاله بالأعمال الوظيفية، والإدارية، فقد عمل مدرساً في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ثم رئيساً لقسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي، وكان عضواً في المجلس العلمي في الجامعة منذ أن عمل بالجامعة، وعُهد إليه بلجنة البحث والنشر في الجامعة ذاتها[1]. إضافة إلى ذلك انشغاله برسم منهج إسلامي جديد للأدب والنقد، ومشاركته في كثير من الأنشطة والندوات الأدبية، وإشرافه على بعض بحوث طلاب الدراسات العليا. ومع ذلك فله العديد من المؤلفات هي:

(*) لخص هذا العرض من رسالة الماجستير للباحثة مزنة عبدالله البهلال: (الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا ناثرا). (التحرير).

أولاً: المجال الروائي:

■ أرض البطولات:

وهي قصة تاريخية، تروي قصة الكفاح المستمر الذي بذله الشعب السوري، ضد الاحتلال الفرنسي.

وقد طبعت هذه الرواية عدة طبعات[٢]، وفازت في مسابقة وزارة التربية والتعليم في الجمهورية العربية المتحدة[٣].

بلغت صفحات الرواية مئتين وثلاثين صفحة من القطع المتوسط، شملت ثلاثين فصلاً، بُدئت هذه الفصول بمقدمة من الناشر – وهما ولدا المؤلف – «يمان، ورضوان». جاء بعدها تعريف بالرواية، وموضوعها، ثم نبذة مختصرة عن المؤلف. وفي هذا العدد أكثر من دراسة مفصلة عن الرواية.

■ الراية الثالثة:

وهي ثاني مؤلفات الباشا، وهي رواية تاريخية فازت في مسابقة وزارة التربية والتعليم، وقرر تدريسها في الصف الثاني الثانوي[٤]. وقد طبعت مرتين فقط[٥].

وبلغ عدد صفحاتها مئتين وستاً وعشرين صفحة من القطع المتوسط، احتوت على ثمانية وعشرين فصلاً. اختلف كل فصل من فصولها عن الآخر، وذلك للحاجة الفنية التي يقتضيها الموضوع. فبعض الفصول لم تتجاوز صفحات قليلة! بينما طالت في بعضها حتى زادت عن خمس عشرة صفحة.

بدأ الكاتب روايته بمقدمة قصيرة تحدث فيها عن الثورة السورية وعن قائدها الشيخ «صالح العلي». وتبدأ رحلة الجهاد

الإسلامي في الفصل الثالث عندما خاض الجيش السوري أول معركة ضد الاحتلال الفرنسي أسفرت عن النجاح والنصر والغنيمة. وانضمام الفتى الأبي «أحمد» أحد شبان القرية الأقوياء إلى الجيش السوري ومعاهدته لفتاة أحلامه أن لا يضع السلاح حتى يفوز بالشهادة، أو يخرج آخر جندي أجنبي عن أرض وطنه. وعاهدها على أن ينتزع لها ثلاث رايات فرنسية طلبتها هي منه لتضعها في جهاز عرسها.

ورسم لنا الفصل العشرون علامات الفرح والزهو التي ارتسمت على محيا «رندة» وقريناتها، والحوار الذي دار بينها وبين أحمد. لتسير الأحداث بعد ذلك حتى الفصل الخامس والعشرين وما بعده تسجل نتائج غدر الفرنسيين بقتل أحمد، وعودة معارك المقاومة بعد الهدنة، حتى لم يبق من المجاهدين والذخيرة إلا أعداد قليلة كان من ضمنهم المجاهدة «رندة» التي شوهدت تندفع نحو مقر القيادة كما تندفع اللبؤة ذوداً عن أشبالها لتخرج منه وقد لطخ الدم ثيابها لتهوي كالطود الشامخ شهيدة بعد أن فازت فيما كانت ترغب فيه من قتل القائد الفرنسي، ووجدت الراية الثالثة داخل صِدَارها، لتنتهي الرواية نهاية مأساوية في الفصل الثامن والعشرين عندما سلم الشيخ «صالح العلي» نفسه للقيادة الفرنسية، ولكن الأيام تمضي مسرعة ويتردد هتاف الحرية في الفيافي والروابي.

وقد تميزت الرواية بجمال الأسلوب وقوة العبارة، وظهرت روح الحماسة والولاء للوطن في أثنائها.

ثانياً: الدراسات الأدبية والنقدية:

■ علي بن الجهم «حياته وشعره»:

بدأ الباشا حياته مع علي بن الجهم في رسالته الماجستير التي بلغ عدد صفحاتها مئتين واحدى وثلاثين صفحة من القطع المتوسط. وقد طبع هذا الكتاب مرة واحدة فقط في دار المعارف بمصر عام ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.

بدأ المؤلف كتابه بمقدمة قصيرة أوضح فيها أهم الأسباب التي دفعته لاختيار الموضوع والكتابة فيه. والمصادر والمراجع التي اعتمد عليها.

وقد احتوى الكتاب على أربعة فصول وخاتمة.

تناول في الفصل الأول: حياة الشاعر كاملة فتحدث عن نسبه، وأسرته، ونشأته، وثقافته ورحلاته، وعلاقته بمعاصريه.

وتحدث في الفصل الثاني عن أغراض شعره العامة، وهو يقصد أبواب الشعر المعروفة، والشائعة التي طرقها جمهور الشعراء: كالمديح، والفخر، والرثاء، والهجاء، والغزل، والوصف، والحكمة.

ثم انتقل في الفصل الثالث إلى الحديث عن أغراض شعره الخاصة، وهو يقصد بها: ما تناولها نفر محدود من الشعراء لعوامل وأسباب خاصة: كالرغبة أو المعاناة النفسية، ومن أبرز تلك الأغراض، شعره المذهبي الملتزم وأرجوزته في التاريخ، وشعره في السجن.

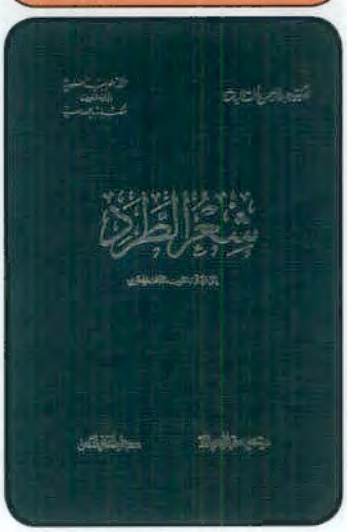

وفي الفصل الأخير تحدث عن خصائص شعره العامة، وهي الخصائص المعنوية والأسلوبية، والموسيقية. لينتهي الكتاب بخاتمة هي بمثابة التلخيص لما سبق أن تحدث عنه[٦].

■ شعر الطرد إلى نهاية القرن الثالث الهجري:

وهو بحث أعد للحصول على درجة الدكتوراه، بلغ عدد صفحاته أربع مئة وأربعين صفحة من القطع المتوسط، طبع مرة واحدة في دار النفائس في بيروت عام ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

وقد بدأ الكاتب بمقدمة قصيرة، أوضح فيها أهم الدوافع للكتابة في هذا الموضوع، ثم عرضا سريعا لمحتويات الكتاب. وقد قسم كتابه إلى سبعة فصول، حملت في طياتها المتعة والتشويق.

ففي الفصل الأول تحدث عن الصيد، وفوائده، وحاجة الصائد إلى المعرفة بالحيوان وطبائعه، وطرق الصيد، وأدواته، ثم جوارح الصيد وضواريه.

وفي الفصل الثاني نقضي رحلة ممتعة معه في الفيافي والقفار.

وتحدث في الفصل الثالث عن شعر الصيد قبل ظهور الطرديات.

وفي الفصل الرابع ينقلنا إلى عصر بني أمية ليتحدث عن نشأة شعر الطرد، السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية.

وتناول في الفصل الخامس:

ازدهار شعر الطرد في القرن الثاني الهجري وعوامله.

وفي الفصل السادس حديث طويل عن شعر الطرد في القرن الثالث الهجري، وعن العوامل التي ساعدت في اتساعه.

وتحدث عن خصائص شعر الطرد لدى الشعراء الذين استشهد بهم، وأطال في الحديث عن بعضهم. وختم الكتاب بالحديث عن الخصائص العامة لشعر الطرد.

■ الصيد عند العرب، أدواته وطرقه – حيوانه الصائد والمصيد:

وقد طبع هذا الكتاب مرة واحدة في دار النفائس في بيروت عام ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

وبلغ عدد صفحات الكتاب مئتين واثنتين وسبعين صفحة من القطع المتوسط. بدأ المؤلف الكتاب بمقدمة قصيرة علل فيها أسباب الكتابة في هذا الموضوع، وأن رسالة الدكتوراه كانت هي السبب الرئيس الذي قاده للكتابة في هذا الموضوع، إلى جانب إعجابه واستمتاعه بالكتابة فيه.

وقد احتوى كتابه على ثلاثة عشر فصلاً، تنقل فيها أديبنا بين الصحاري والقفار، فكانت رحلة ممتعة جميلة. بدأها المؤلف بحديث عن الصيد عند الأمم التي اتصلت بالعرب من فرس وروم، ثم انتقل إلى الحديث عن الصيد عند العرب في الجاهلية والإسلام.

واشتمل الكتاب أحاديث مفصلة في فصولها التالية عن: معرفة العرب بالحيوان والبيزرة. وأنواع الصيد بغير الحيوان. والجوارح، وسياستها، والصيد بها. والضواري، والصيد بها.

وأمراض الجوارح، والضواري، وعلاجها. والمصيدات من الوحوش. والمصيدات من الطير. وآداب الصيد عند العرب قبل الإسلام. والصيد في العصر الحديث، وطرق صيد الوحوش، وعتاد الصائد، وبعض التوجيهات للصائدين، وبعض أدوات الصيد في العصر الحديث، وآداب الصيد عند الصائد الحديث، فذكرها مجملة في تسع نقاط. وجعل المؤلف الفصل الأخير، للتعريف بأهم كتب الصيد والبيزرة، فذكر خمسة من أشهر كتب العرب وأبرزها[٧].

وقد تميز هذا الكتاب بالدقة في جمع المعلومات وتقصيها، واحتوائه على رسومات وصور توضيحية، تشد القارئ وتقرب المعنى.

■ «نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد»:

وهو من أهم الكتب في مجال دراسات الأدب الإسلامي، ويمثل المنهج المقترح للأدب الإسلامي – كما يراه المؤلف – وقد طبع عدة طبعات، وبلغ عدد صفحاته مئتين وستا وثمانين صفحة، من القطع المتوسط. وكتب الشيخ أبو الحسن الندوي –رحمه الله– مقدمته بناء على طلب أبناء المؤلف. (وفي العدد عرض مفصل للكتاب في باب مكتبة الأدب الإسلامي للدكتور خليل أبو ذياب).

ثالثاً: الدراسات الإسلامية:

■ صور من حياة الصحابة:

وهو كتاب اشتمل على ملخص لصور من حياة خمسة وستين صحابياً كُتب على غلافه: للفتيان والفتيات. وقد بلغت طبعات هذا

الكتاب ثلاثا وعشرين طبعة، وقد ترجم إلى عدة لغات منها الإنكليزية، والبنغالية، والأردية، والتركية، والبوسنية، والبرتغالية، والصينية[٨].

وقد كان مقرراً تدريس هذا الكتاب الذي كان في طبعاته الأولى عبارة عن سبعة كتيبات صغيرة لثمانية وخمسين صحابياً؛ كان مقرراً في المعاهد العلمية، في المملكة العربية السعودية، وصدرت طبعة جديدة منقحة بلغ عدد صفحاتها خمس مئة وثمان وخمسين صفحة من القطع المتوسط.

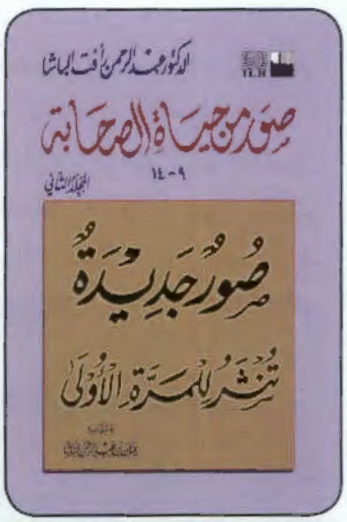

وقد بُدئ الكتاب بمقدمة الناشر وهما ابنا المؤلف، وبعدها صفحة كتب فيها الباشا – رحمه الله – مقدمة بخط يده قال فيها: «اللهم إني أحببت صحابة نبيك محمد ﷺ أصدق الحب وأعمقه، فهبني يوم الفزع الأكبر لأي منهم! فإنك تعلم أني ما أحببتهم إلا فيك، يا أرحم الراحمين»[٩]. (انظر ما كتبه في هذا العدد الدكتور أحمد زياد محبك، بعنوان: (فن السرد في صور من حياة الصحابة).

هذا هو كتابه الذي انفرد به وتميز عن غيره، فلم يسلك مسلك المترجمين في تناولهم للشخصيات وترجمتها، تناولاً جافاً يخلو من جمال العبارة، وروعة الأسلوب، ودقة التعبير، والصور والأخيلة الرائعة التي أضفت على كتاباته بهاء ورونقاً، وسنا النور والإيمان والإخلاص والحب الجم لصحابة رسول الله ﷺ، إضافة إلى ذلك ذكره بعض المراجع في نهاية حديثه لمن أراد الاستزادة من أخبار الصحابي.

■ صور من حياة التابعين:

وهو كتاب اشتمل على ملخص لصور من حياة سبعة وثلاثين تابعياً، كتب على غلافه: للفتيان والفتيات. وقد بلغ عدد طبعات هذا الكتاب خمس عشرة طبعة، وقد ترجم هذا الكتاب إلى عدة لغات أيضاً[١٠].

وقد بلغ عدد صفحات هذا الكتاب خمس مئة وخمس صفحات من القطع المتوسط.

بدأ المؤلف كتابه بمقدمة بخط يده قال فيها: «اللهم إني أحببت الصفوة المختارة من ثقات التَّابعين حُبًّا لا يفوقه إلا حبي لصحابة الرسول الكريم، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، اللهم فهبني يوم الفزع الأكبر لأيٍّ من هؤلاء أو هؤلاء، فإنك تعلم أني ما أحببتهم إلا فيك، يا أكرم الأكرمين».

يلي هذه العبارة مقدمة الناشر، ثم بدأ الكتاب بنفس الطريقة والمنهاج الذي سار عليه في «صور من حياة الصحابة»، فقد وضع تحت اسم كل تابعي عبارة قالها فيه صحابي سبقه، أو تابعي عاصره، أو مقولة قالها المؤرخون عنه. وأحياناً أخرى يستنتج المؤلف أبرز سمة ويلخصها في سطر أو أقل. من ذلك قول عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – عن الأحنف بن قيس: «إن هذا الغلام والله هو السيد، وإنه سيد أهل البصرة»[١١].

أو كقول عمر بن عبد العزيز عن القاسم بن محمد ابن أبي بكر: «لو كان لي من الأمر شيء لولّيت القاسم بن محمد الخلافة»[١٢].

وكقول المؤرخين عن سعيد بن المسيب: «كان سعيد ابن المسيب يفتي والصحابة أحياء»[١٣].

وكان يبدأ حديثه بإشارة موجزة سريعة لأهم الخصائص والصفات التي تميزت بها تلك الشخصية، سواء كانت تلك الصفات جسمية أو خُلقية، وفي بعض الأحيان يشير إلى البيئة التي عاش فيها، والقبيلة التي ينتمي إليها، ثم يبدأ بسردٍ للقصة أو الصورة التي اختارها.

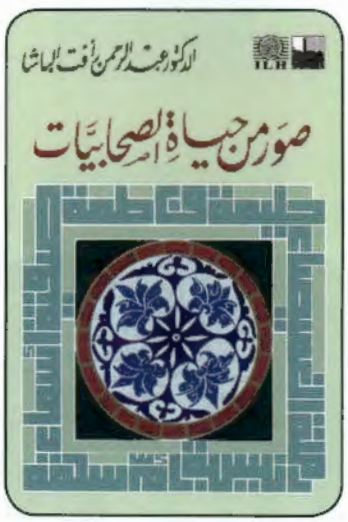

هذا هو كتابه الذي سار فيه على نفس الخطا والنهج الذي سار عليه في «صور من حياة الصحابة»؛ فنشهد فيه العبارة المنمقة الجميلة، والصور الرائعة التي تنم عن خيال خصب بعيد، والوقائع التي كان يهدف من وراء عرضها، شحذ الهمم وتتبع الأثر. وإبرازه إضافة إلى ذلك ذكر في نهاية حديثه عن كل شخصية هامشاً فيه أهم كتب التراجم لمن أراد الاستزادة من أخبار ذلك التابعي.

وقد انتهى الكتاب بفهرسين: الأول: ألفبائي، والثاني: عرض فيه محتوى الكتاب.

■ صور من حياة الصحابيات:

وهو كتاب من القطع الصغير، وطبع بعد وفاة المؤلف مرتين فقط، وبلغت صفحات هذا الكتاب مئة وثلاثاً وعشرين صفحة. تحدث فيها عن بعض أبرز الشخصيات النسائية التي عايشت بعثة النبي ﷺ وما بعدها. وابتدأها المؤلف بأم المصطفى ومرضعته «حليمة السعدية»، ثم تحدث بعدها عن ست صحابيات من خيرة النساء، وهن:

- صفية بنت عبد المطلب، عمة الرسول ﷺ.
- فاطمة الزهراء، بنت الرسول الكريم عليه أفضل الصلوات وأزكى التسليم.
- أسماء بنت أبي بكر الصديق.
- نسيبة المازنية «أم عمارة».
- رملة بنت أبي سفيان «أم حبيبة» (أم المؤمنين).
- الغميصاء بنت مِلحان «أم سُلَيم».
- أم سلمة (أم المؤمنين) رضي الله عنهن جمعاء

وكان عرضه لصورهن المشرقة المضيئة كعرضه لصور من حياة الصحابة، فذكر تحت اسم كل صحابية مقولة قالها الرسول الكريم، أو أحد صحابته، أو المؤرخون في تلك الشخصية، وأحيانا يستنتج هو بنفسه ذلك. ثم يبدأ حديثه بذكر النسب والمكانة، ثم يبدأ بسرد جميل لبعض الأحداث والصور الرائعة لحياة تلك الصحابيات.

وكان يهدف من وراء ذلك ضرب أروع الأمثلة من واقع حياتهن، وكيف كان إخلاصهن وتفانيهن في خدمة الإسلام والمسلمين، وكيف ضربن أروع الأمثلة في التضحية والفداء، والصبر وتحمل المشاق في سبيل الدعوة الإسلامية[١٤].

وقد زُود الكتاب بهوامش قيمة تكشف لنا عن معاني بعض الكلمات الصعبة، وترشد من أراد الاستزادة من أخبار الصحابيات إلى بعض كتب التاريخ والسيرة.

وقد اشتمل كتابه على العبارات الجزلة الرصينة، والأساليب القوية المتينة. إلا أنه يلاحظ عليه تكرار بعض الكلمات مثل كلمة «رزان» في حديثه عن حليمة السعدية، وصفية بنت عبد المطلب[١٥]، وفاطمة الزهراء[١٦].

رابعاً: الكتب العامة:

■ البطولة:

وهو مؤلف صغير، كتب المؤلف على غلافه عبارة تحمل المتعة والتشويق، وتكشف عن أسرار البطولة ومعانيها السامية.

وقد طبع طبعتين فقط، وبلغ عدد صفحاته اثنتين وتسعين صفحة من القطع الصغير، وتحدث فيه عن البطولة عند المسلمين، تعريفها ومعالمها، وبواعثها وضروبها، وضرب أمثلة عليها. واختتم الكتاب بخاتمة موجزة بليغة، وقصة قصيرة شملت مجموعة كبيرة من البواعث، وليس باعثاً واحداً. ولكنه أكد أن أهمها هو باعث الإيمان بالله[١٧].

■ حدث في رمضان:

وهو من الكتب الصغيرة، التي طبعت بعد وفاة الباشا مرتين، وبلغ عدد صفحاته مئة وسبعاً وستين صفحة من القطع الصغير.

واحتوى كتابه على مجموعة كبيرة من الأحداث والوقائع التاريخية التي حدثت في شهر رمضان المبارك، مثل بدء الوحي، ومعركة بدر الحاسمة، ومصرع أبي جهل، وهدم الأصنام، وإسلام بني ثقيف، ووقعة عمورية، وسقوط المسجد الأقصى بأيدي الصليبيين. وهدم مدينة عسقلان، ومعركة عين جالوت، تحرير أنطاكية. وغيرها من الأحداث التي شهدها شهر رمضان المبارك، وهي على اختلافها وتفاوتها تتشابه في أنها أحداث عظمى في حياة البشرية[١٨].

■ الدين القيم:

وهو من الكتب الصغيرة الحجم، التي طبعت بعد وفاة المؤلف طبعتين، وقد بلغ عدد صفحاته مئة وإحدى عشرة صفحة. وعرض فيه الباشا لأهم القضايا وأخطرها في حياة البشرية، وهي قضية المنهاج المنظم لهذه الحياة، والدستور الشامل لكل أمة في أي زمان ومكان، إنه الدين القيم.

فتحدث عن مبدأ المساواة، والحرية الشخصية، ونظرة الإسلام إلى علاقة الفرد بالمجتمع، وعلاقة المجتمع بالفرد، ورعاية حق الجوار، وبر الأمهات، والترف في البر، واختتم الكتاب بحديث عن الذوق الاجتماعي.

وكان في حديثه يسرد مجموعة من القصص التي تعالج جوانب مختلفة من الحياة منها، الاجتماعية، والنفسية، والأخلاقية، التي تؤكد أن هذا الدين قيِّم لا اعوجاج فيه، يحقق مبدأ العدالة والحق[١٩].

■ الطريق إلى الأندلس:

وهو آخر مُؤلَّف طبع بعد وفاة الباشا، وقد طبع مرتين، وبلغ عدد صفحاته اثنتين وتسعين صفحة من القطع الصغير.[٢٠] (انظر ما كتبه فرج مجاهد عبد الوهاب عن الكتاب في هذا العدد).

خامساً: كتابه في الدفاع عن اللغة الفصحى:

■ العدوان على العربية عدوان على الإسلام:

وهو كتاب في الدفاع عن اللغة الفصحى، ورغم أن هذا الكتاب صغير الحجم لم يزد عدد صفحاته على إحدى وستين صفحة، إلا أنه يحمل أسراراً وكنوزاً عظيمة، ونصائح وإرشادات مفيدة، تحدث فيه الباشا عن العدوان على لغة القرآن من خلال:

- إحلال العامية محل الفصحى.
- إحلال الحرف اللاتيني محل الحرف العربي.
- الضربات الخفية، وذلك بدعوة أعداء اللغة إلى العامية عن طريق تشجيعهم وعنايتهم بالأدب العامي، وتيسير النحو العربي.

وبين أن لغتنا هي تراث العرب والمسلمين جميعاً على اختلاف أجناسهم وأقطارهم، ومكمن تميزها عن غيرها هو كثرة اشتقاقاتها، ومترادفاتها، وغِنَى مفرداتها، ووفرة دلالاتها[٢١].

سادساً: مؤلفاته في مجال التربية:

■ فن الامتحانات بين الطالب والمعلم:

وهو من الكتب ذات القطع الصغير طبع مرة واحدة فقط، وبلغ عدد صفحاته ثلاثاً وتسعين صفحة. وقد أطْلَعَنا في بداية كتابه على قصة واقعية، وتجربة خاصة به. ثم تحدث عن الامتحانات عند الأمم القديمة: كالصين، والدول الأوربية. وأنواع الامتحانات، وفوائدها ومزاياها.. والامتحانات عند المسلمين، وعن طلابنا والامتحانات، وقاعة الامتحان، وأن فهم الأسئلة هو طريق النجاح. وختم الكتاب بحديث قصير عن ورقة الإجابة، وما يجب أن تكون عليه[٢٢].

■ فن الدراسة:

من الكتب المفيدة في مجال التربية، بلغ عدد صفحاته تسعا وثمانين صفحة من القطع الصغير، طبع هذا الكتاب مرة واحدة فقط. وتحدث فيه عن الأمور الآتية:

- الغاية من الدراسة، والخطة والبرنامج الذي يسير عليه من أراد التعلم والدراسة.
- مراحل الدراسة الثلاث، وهي: مرحلة الإعداد، مرحلة الإصغاء، مرحلة المذاكرة.
- عملية المذاكرة وخطواتها الخمس: التصفح، الأسئلة، القراءة، الاستظهار، المراجعة.
- حوافز المذاكرة وبواعثها[٢٣].

هذا ما يتعلق بآثار الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا – رحمه الله – التي طبعت في حياته، وبعد مماته، وتوجد بعض الكتب التي لا تزال تحت الطبع وهي: شعر الدعوة في العصر النبوي، وذاكرة الأمة، والدوحة المباركة، وأصداء الحج في الأدب، وفن القراءة[٢٤].